فنان الشعب

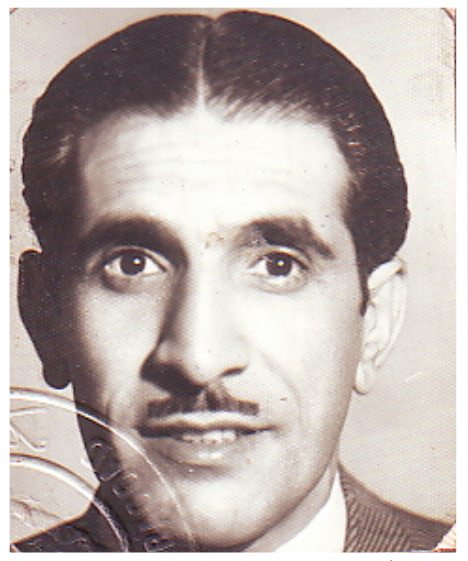
عزيز علي

باسم عبد الحميد حمودي

لايعرف الفنان الكبير. عزيز علي. تاريخ ميلاده الحقيقي، هذا ماكتبه رحمه الله عن حياته لكن المعروف انه من مواليد عام ١٩٠٨ وقد ولد في كرخ بغداد واكمل دراسته الابتدائية عام ١٩٢٤ واستمر في الدراسة لفترة حتى عين موظفا في الكمارك.

كان عزيز علي عاشقا لفن التمثيل و قد اسس مع حقي الشبلي الفرقة العربية للتمثيل وترأسها عندما سافر حقي الشبلي للدراسة في باريس في ثلاثينيات القرن العشرين ، واشتهربكونه فناناً شاملاً فهو يكتب كلمات منولوجاته ويلحنها وينشدها على الهواء (مباشرة) من ميكرفون اذاعة بغداد (اللاسلكية) منذ عام ١٩٣٦ عندما تأسست الاذاعة. كان عزيز علي رحمه الله فناناً لايمكن تكرار تجربته ولاقدرته الادائية الخاصة ولا تجاربه المميزة الانتقادية الساخرة موسيقى وكلمات.

سجن عزيز علي عام ١٩٤١ لمشاركته في احداث مايس وقضى في السجن اكثر من عام حتى اطلقت وزارة جميل المدفعي سراحه ليعود الى وظيفته متنقلا الى عدة اماكن قبل ان يستدعى الى وزارة الاعلام عام ١٩٦٨ ليؤسس مدرسة الاطفال الموسيقية بعد زيارات قام بها الى الاتحاد السوفيتي (السابق) وبلغاريا حيث اكتسبت الساحة الفنية اضافة جديدة من الشباب والشابات الذين يتقنون العزف على الالات الموسيقية المتعددة وتستطيع مجموعة منهم تقديم عروض الاوبريت والباليه باقتدار.

طلب عزيز علي في السبعينيات احالته الى التقاعد بعد طول معاناة مع مسؤولي الوزارة وقبع في داره حزينا ساخطا لسوء تقدير الدولة له، وحب الناس واقبالهم على منولوجاته الساخرة الجريئة التي تصلح لكل زمان ومكان، عدا ما ارتبط منها بحدث مباشر مثل (ياكونت) الخاص بمقتل الكونت برنادوت ومونولوج (لهانة وبس) الخاص بثورة تموز ١٩٥٨.

ان فن المونولوج عند الفنان الكبير عزيز علي يشكل رسالة اجتماعية وسياسية كما يشكل صورة فنية صادقة مثقلة بالاداء الفني الموسيقي المذهل وقد استطاع. عبر الأعوام والعقود. الحفاظ على هيبة المنولوج الذي يقدمه لانه كان منولوجياً مرتبطاً بقضية شعبية لها تأثيرها المباشر على حياة الناس واحلامهم. من هنا كان عزيز علي ، ولهذا نحتفي به في هذه الصفحة الخاصة.

عزيز علي..تحليق لأعلى

عادل الهاشمي
ناقد موسيقي

كل اربعاء عام ١٩٣٦

عزيز علي اسم تثبت في حاجات ثقافتنا اليومية خاصة بالنسبة للذين عاشوا ايامه في الكدح الغنائي الذي كان يقدمه مساء كل اربعاء من كل اسبوع عبر الاذاعة العراقية التي تأسست عام ١٩٣٦ ، كانت الاهداف التي قامت عليها اغانيه تقوم على المواجهة المباشرة مع المشكلات، فهو كمن يقول (متاعبنا تحيا فينا) الاغنية كانت عنده تفجر رعشة ! لم تكن اغانيه أو مونولوجاته (الاصح تعبيراً) معجونة بالعطور وبألوان البراري ونعومة ملمس النساء، بل كانت نداءً يخط على صفحة الزمن ليوقظ الناس من غفوتهم ليقول لهم، انا معكم في محنكم وفي جوعكم وفي ألمكم وفي عذابكم لكن الخلاص من كل ذلك لايجعلنا نستكين ونجلس القرفصاء ، بل نتحرك الى افق العمل اليومي من اجل ان يكون للعامل بدلة وللفلاح حذاء يحتذيه، وللمرأة صوت تعبر من خلاله عن عالمها وللانسان حقه في التعليم ، وللعاجز حقه من رعاية الدولة له، وفي صميم الخلق الغنائي ، كانت الفترة التي ملأها عزيز علي بمثابة "اشراقات" وهي فترة بدأت في عام ١٩٣٧ وانتهت في عام ١٩٥٨ وقد توزعت على مراحل ثلاث ، المرحلة الاولى ، ابتدأت بعد تأسيس الاذاعة العراقية في عام ١٩٣٦. في الاشهر الاخيرة. حتى نشوب الحرب العالمية الثانية في عام ١٩٣٩، المرحلة الثانية، وقعت مابين عام ١٩٣٩ وحتى الأشهر الاولى من عام ١٩٤١ (مايس) ثورة رشيد عالي الكيلاني. المرحلة الثالثة، انطلقت ، من الأشهر الاولى من عام ١٩٤٨ وأنتهت في الشهر الثالث من عام ١٩٥٨،

الصدى الصوتي للعصر

أتسمت مونولوجات عزيز علي بالوضوح واستعمال الاشارات وترصين البيت الغنائي بالامثال البغدادية ، وكانت هذه المونولوجات بأجمعها هي الصدى الصوتي لعصره ، لأنه كان يضع تحديداً لبعض المشكلات تلك التي لاتحديد لها ، لم تكن مونولوجاته مزجاة بالعطور والاصوات والالوان، كانت هتافاً صميمياً من رجل لايجيد الغناء المملوء بالآهات، بل كانت مونولوجاته لغة الروح للروح غنية بالمفاجآت ، بعيدة عن كل تأنق فارغ وكل هوس جارف، أنها لغة فيها صدمة للغافين لتأخذهم بموسيقاها اللفظية وصورها وطرافتها وتركيباتها، والمونولوج عند عزيز علي هو تكثيف الدهشة ، والتبسيط والابتعاد قدر الامكان عن كل تركيب لفظي منمق ومتصنع ، وعزيز علي قد غنم من هذه الملامح التي اتسمت بها مونولوجاته ، فكان المونولوج العائد له هو التعبير باللغة البغدادية المحمولة الى نمطها الاساسي، وربما للصدق الذي حوته مونولوجاته ، يكون عزيز علي هو الرعشة الروحية لحياتنا الفنية في الوطنية العراقية والقومية العربية، كانت مونولوجاته غير غافلة عن مآسي حياة الناس كانت مونولوجاته عن الفساد، هي النار التي تحرق، ومونولوجاته عن الوطن هي الشعلة التي تضيء، من هنا تحصن عزيز علي من الجمل الجوفاء في المونولوج الذي يغنيه ، بل كان المونولوج في حد ذاته صورة كبيرة تتفتح حول فكرة اجتماعية او سياسية او تربوية او اقتصادية ، وتبعث بقوة طبيعها في كل سطور المنولوج، فهل كانت مونولوجاته تتوشح في التعبير برمزية هي بمثابة عقيدة جمالية؟

القوّال

يقول (موريساس) في جريدة الفيغاروالفرنسية في ايلول عام ١٨٨٦ (كان في الروحية نفسها والتعابير ذاتها تقريباً . الفكرة في ذاتها، الجميل سمو الروح ، وان على الفكرة ان ترتدي شكلاً محسوساً يكون ملائماً لها في جميع ابعادها) كان عزيز علي يردد دائماً " انا قوال ، اقر بذلك لأنها الحقيقة التي تهتز في نفسي " فهو فنان الالهام والتحلية والحقيقة، والصدق ، أنفعل بحزنه الداخلي، وهو رجل عصامي رقيق الحال لايملك داراً ولا داوراً، يعيش على راتبه المحدود جداً مع عائلة قوامها ثمانية أنفار، لم يتوقف عند ميوعة مغني عصره ولابهرته شهرتهم ، واذا كان الغناء في عصره أختلاجات وآهات وتنهدات ، فأنه في صنيعه (فن المونولوج) أعاد إليه نبرته الخطابية المجلجلة منفتحاً على العالم المحيط به، مطوقاً نبرته الالقائية بشذى المشكلات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والانسانية ، كان زاهداً يتوضأ بنور الوطن وكان فناناً أميراً لكون آخر ولصراحته وحده ايمانه بقضيته ، تبدو الرمزية في فنه محملة بأكثر مما تطيق ! فلم يكن يعبأ كثيراً بتسجيل اللحظة الهاربة من حياته، ولا الانسياق المدوخ في دوامة الاحاسيس ولا كان يضفي منطقا مرئيا على العناصر الخيالية، فليس لديه من تشوه الروح والخدر والغموض ، وعليه يمكن التساؤل فيما اذا كان عزيز علي هو تطبيق خاص لطاقات الالقاء والتنغيم والاداء واللفظ، وفي حين نجد ان العمل الغنائي لديه يفرض على كل لحظة موصوفة من الزمن موقفاً! وواقع الحال انه لم يتنبه الا الى العزم والحزم في فنه، فهو من أقتضته الضرورة ليست الضرورة الفردية، بل الضرورة الانسانية لمجتمع بأسره ، لذلك قدم مونولوجاته نظيفة في مراميها الشريفة وليست مزروعة بالصدوع والشقوق ، غير ان مونولوجاته تعكس ذلك القلق الذي هو النتاج الجدي للابداع، صحيح ان معظم المواقف التي سطرها في مونولوجاته يمليها ويدفعها ويسببها ردود الافعال التي تدرب في الفنان شكيمته القوية في مواجهة كل اعصار ذاك الذي لايضيع منه الحافز في العلاقة بين التلقائية الفردية والمعيار المشترك! أن اخلاقيته تقدم العديد من الاوامر، وهي الوقوف مع الحق والمبدأ والصدق، الصدق الذي هو نابض السكلجية الفنية، حيث عاود المونولوج عنده الانبثاق من برعم الانتماء الى اوسع طبقة من البشر وهم الشعب!

وبقيت الرحلة امامه لتأخذه الى عوالم المواجهة، ان العمل يقوم على المضي الى امام حتى النهاية، وفن المونولوج هو الفن الذي يطرح الاسئلة حتى النهاية ويهدف الى اظهار المسابقة تلك التي تفصل المونولوج الانتقادي الذي بشر به عزيز علي ودفعه الى الحدود القصوى من رحلته الفنية لايتعلق بسلسلة من الافعال والعواطف، بل بماهيته عبر تعرجات الحياة المحيية ، وعليه فأن صدق الفن الذي تركه لنا عزيز، هو الذي جعلنا نستعيد من خلاله حياتنا، لأنه فن المواجهة الباسلة مع المصير، لقد أحببت الاستماع لمونولوجاته ، لأنها حوت روح الحمية عن الناس وحوت ذلك الحدب الصاحي على مصالحهم، وكان ساحة للتجربة الفنية يختلط فيها الوضوح بالحذر! لقد بقي منذ ولادته وحتى عام ١٩٣٧ صامتاً يفكر ويمعن النظر فيما يسمع وفيما يقرأ وفيما يعيش، ففي المسافة التي امعن فيها الفنان النظر تقف لذة الغناء والدخول الى المغامرة الغنائية، ولم يكن من الممكن حتى عام ١٩٣٧ أستشفاف شكل آخر من أشكال الحساسية بغاير رغبته في الغناء ، لكن الغناء الذي يقول رأياً ويصنع موقفاً ويتبدى صاحياً خلاقاً، ذلك ان الواقع العراقي في تلك السنوات الباكرة من حياته كان مليئا بتكهنات العراقيين! وكانت الحياة السياسية تضطرم في العباب العظيم للحياة العراقية والعربية الشاملة، وكانت مشكلات الانسان في العراق قوية وعميقة ومتشعبة والانسان العراقي في تلك السنوات كان مغروساً في التراب لأزماته النفسية والصحية والتربوية والتعليمية ، بل ان هذا الانسان طالما قد عقد على جلده واجب العناق للارض التي حملته.

الدخول الى..

كان قرار عزيز علي بوجوب الدخول الى واحة الفن المعبر، قد دل على ان فكراً أخلاقياً ونزعة انتقادية جريئة للواقع العراقي قد دخل كل ذلك الى الحياة الواقعية. ان عزيز علي طرح نفسه منذ البداية، على انه فنان صاح لايضلل وان فنه مراوحة بين الوقائع والقيم، بين الشاغل الاخلاقي والشاغل الجمالي، وهو فن يخص الانسان، الذي يعيش في حضن، بشرية لها يقينها ، لذلك يمكن القول ان المونولوج الذي قدمه عزيز علي لايكمن في البيت الزجلي، او الغنائية او الطرافة، بل في اشراق مادته الموضوعية التي تهم كل الناس ، وفي نسيجه الفني وما فيه من أستفزاز الحساسية والروح الوطنية والقومية، والمونولوج الانتقادي السياسي الذي طبع فن عزيز علي ، انما كان ينشد حقيقة ، واقعا كشفاً، انساناً ، وايضاً كان المونولوج يصدم لأنه محمل بكمية من لذة المصارحة الواعية، هم الحرية او الدعوة للحرية ، الاحساس بأن العدل أساس الملك، سحر اللامتوقع.

الاستثناء الابرز

ويبدو ان الطريقة المثلى لفهم احدى المراحل الغنائية في تاريخ الغناء العراقي المعاصر، أو غيره انما تتمثل في فهم شخصيات هذه المراحل، التي من المؤكد ان عزيز علي احد ابرز هذه الشخصيات المرحلية في الغناء العراقي المعاصر ، ذلك ان من اهم مقومات الحضارة الغنائية هي تلك النوازع والنزعات الارادية التي تتمرد على حساب الارباح والخسائر، اذ انها وبكل تأكيد تعتمد مبدأ العطاء والتضحية ، وكذلك تعتمد التغني بمزايا الوجدان واندفاعات البديهة التي تتدفق تدفق الينبوع من الارض.

واذا كان عزيز علي ، هو الاستثناء البارز من الاصوات الغنائية التي نمت بعيداً عن التأوهات والميوعة والتخاذل النفسي فأن مجمل الحكم يقوم على ان الصوت العراقي قد أعترته بعض ملامح الابتعاد عن اصول التربية الفنية والعلمية في الغناء، فأن هذا الابتعاد كان يتوخى من وجوده غرضاً اشكالياً واثراً مثمراً في استطالات الحواس وفي تنميتها، لذلك يمكن القول ان اعظم ما نطمح إليه، هو تحقيق حضارة الغناء العراقي، حيث ينبثق المحدود من اللامحدود وتتجلى الاصول من الثوابت وتتجدد الملامح من المتغيرات والحضارة في الغناء ليست وهماً، وأنما هي حقيقة تولد وتنمو في تربة بينة يمكن تحديدها تحديداً جغرافياً دقيقاً، كما هو الحال في جغرافية العراق، وفيها ما فيها من امكانات باطنية هائلة على هيئة لغات ومذاهب وكنوز وفنون وعلوم ومعارف وخبرات.

احد الاصوات التاريخية

وان لكل حضارة صيرورة واتجاها وزمانا ومصيرا وتاريخا، وان للحضارة الغنائية والموسيقية دستورا اخلاقيا يتمثل اول ما يتمثله في العقيدة الفنية لمفهوم الغناء، فهذه العقيدة لاتعتمد العقل وحده، أنما تعتمد ايضا الوجدان الممثل في الشعور ثم تتابع هذه العقيدة الفنية تطورها في الاصوات ذات الصفة التاريخية ، بمعنى ان التاريخ يضم كثيراً من الاصوات التي مرت على ساحة الغناء العراقي أو غيره ، لكن النادر من هذه الاصوات من امتلك الحس بالتاريخية ، بمعنى انه تطور روحياً مع تطور أدائه العلمية والفنية الى جانب ذلك فأنه يتطور ايضاً بما لايحس به من العزائم والاخلاق، ويقيناً ان صوت عزيز علي هو احد الاصوات ذات الصفة التاريخية، لان الغناء في صوته لايصبح مادة للثراء المادي والوهم والضياع، حيث تنحل الضمائر ويصبح الاتقان مادة يقاس بالباع والذراع ويقدر بالقنطار والدينار!

والاسماع هي الاساس في عمل كل غناء وفن وموسيقى في الحضارة الغنائية، تتفاعل الاسماع مع الصوت الغنائي بدثار من الوجدان والضمير، لا كما يحدث . اليوم . ينشأ هذا التفاعل نتيجة للمصلحة المادية لمجموعة لاتجمع بينهم رابطة الفهم المعرفي لأصول الغناء.

نوعان من الاداء

بل المصادفة، تلك التي تجعل من هزّ البطون والارداف على المسرح هو امتياز للمغنى الجديد! وعليه يمكن تصور تقهقر السياق لأصولي للغناء ولوجوده العريق يعود الى انتقاء حالة القلق عند المغنى هذا الانتقاء يقوى كلما أظهر المغني براعة في هزّ اعضائه الجسدية على المسرح ، بينما في الحضارة الغنائية الوقورة التي يمثلها عزيز علي ورهط من المغنين الكبار، فأن القلق الدائم هو الذي يبعد عن ساحة النفس عند المغني الطمأنينة الباطنية مما يزيد إصراراً على التجديد والتحليق لأعلى.

والصوت الغنائي هو رمز وهو تعبير عن الصلة بين القيم الغنائية والعصر الذي امتدت على فرشته تلك القيم، حيث يتحول الاتجاه الغنائي لعصر ما الى امتداد كما هو الحال في مصر عندما اصبح "سيد درويش" ١٨٩٢. ١٩٢٣ هو صلة الامتداد بين(الماضي) انجازات القرن التاسع عشر و(الحاضر) القرن العشرين، وكما هو الحال عندما تابع خلفاء سيد درويش، (محمد عبد الوهاب) ١٨٩٧ . ١٩٩١ (محمد القصبجي) ١٨٩٢ . ١٩٦٦ (زكريا احمد) ١٨٩٦ . ١٩٦١ (رياض السنباطي) ١٩٠٦ . ١٩٨١ (فريد الاطرش) ١٩١٠ . ١٩٧٤ أنجازات هذه الصلة!

الغناء العراقي

الغناء العراقي الذي هو جزء من الغناء العربي له وجود روحي يكاد يكون مطلقاً في روحانيته، لأن الامة العربية هي امة قرآنية وأمة الانبياء والرسل وقد صدق (ابن خلدون) حينما وصف العرب قائلاً (والعرب اسرع الناس قبولاً للحق والهدى لسلامة طباعهم من عوج الملكات وبراءتها من ذمم الاخلاق).

وعليه يمكن القول ان الغناء في امة العرب قد ضغط في السنوات القلائل من نهاية القرن التاسع عشر والعقود التالية من القرن التاسع عشر والعقود التالية من القرن العشرين، جميع العواطف الانسانية داخل البقعة الجغرافية العراقية والعربية المدخرة والمؤجلة في آن واحد تلك التي تكفي ان تملأ قروناً وقروناً من التاريخ، فالزخم الذي يفيض من الغناء العراقي زخم صوفي وشعوري ووطني وقومي وهو لايستهدف ابداً في كل نشاطاته توفير الاسباب التي تيسر المتع، بل انما يستهدف اولاً واخيراً الاندماج في النظام للغناء.

ترى هل يستطيع الغناء العراقي ان يعرض على العين المبصرة خصائص عظمى معينة مرة بعد اخرى، خصائص لها ما لها من متانة وثبات كافيين كي يوصل الاسماع . صاحبة المصلحة الحقيقية في اية ترقية غنائية . الى نتائج حقيقية تهدف الى فتح مجار من الخواص غير المرتادة، تعطي للغناء الاصولي التقليدي (عزيز علي) مفهومات، جديدة من الانسجام مع روح الحياة؟ سنقول ان اشكال الغناء هو قانون أزلي من الصعب التفكير باضافة سلاسل جديدة لقوالب الغناء ومن حيث الصفات والقواعد والانماط والمدارس والاتجاهات والاحكام، وانه من اليسير علينا أن نرى ان الحقيقة العميقة في الغناء العراقي من قوة الصوت ورقته وعذوبته وجرسه وصلصلته وأحساسه وقيمته الفنية وحركة نبراته ونطقه وجزالته تنبع من مبدأ وتتدفق من حس الضرورة التاريخية، فنحن لانزال في غنائنا العراقي بعيدين كل البعد عن اية تقنية علمية دونما مخطط او وحدات علمية من البحث والاستقصاء النظري والعملي ن فنجاح صوت غنائي عراقي يعود الى الحظ وأقل ندرة الى الغريزة الفنية، ونستثني من هذا التحديد صوت عزيز علي ! لأنه صوت المطالب الوطنية والقومية والانسانية ولأنه أرهص ملكاته لقضية الحرية والعدل والمساواة والكرامة الانسانية ، وعليه لم يسبق لأي دراسة ان ادركت من قريب او بعيد، أن هناك منشأ أو حذراً ينمو عليه حل عريض وواسع لمشاكل الغناء، والاصوات الكبيرة التي مرت في الغناء العراقي عبر اكثر من نصف قرن كانت تنمو تحت رعاية ذوقية غريزية تقليدية ، هذه الاصوات نمت وكبرت وأثمرت في شجرة الغناء العراقي ، كانت بعيدة عن نموذجية الرؤية التاريخية والعلمية لفن الغناء ، من خلال الادراك الكلي للتركيب الخارجي والداخلي له ومن حتمية الفرق بكل وضوح بين الأثر الجوهري الغناء وبين الاثر الميكانيكي له، بين محتوى الخيال وبين القانون الفني للغناء، بين الصورة والنموذج وبين المعادلة والنهج، بين الغناء الواقعي الاني، وبين الغناء المحتمل دائماً وان اسماء مثل (عثمان الموصلي، احمد الزيدان، محمد القبانجي ، عزيز علي ، سليمة مراد ، ناظم الغزالي ، حضيري ابو عزيز، داخل حسن، صديقة الملاية، رضا علي، محمد عبد المحسن، مائدة نزهت ، زهور حسين، وحيدة خليل، ياس خضر، حسين نعمة،فاضل عواد ، فؤاد سالم، رياض احمد) هؤلاء وسواهم أمثلة على رقعة جغرافية تمثلت فيهم . مدينية الغناء، ذلك ان اية سيرة شخصية لفن الغناء ، تستقطب اول ماتستقطب روح البيئة التي انطلق منها. وحسنا في الغناء وبصيرتنا الداخلية يريان بالتأكيد في اسماء عراقية في الغناء كما لو انها تمثل تتابعاً في الماضي لكي يتصل هذا التتابع الى ساحة الحاضر، اذن ماهو الغناء العراقي؟

انه بالتأكيد عرض منتظم للماضي بكل قوالبه وقوانينه واشكاله وبيئاته والخروج على هذا الماضي يشكل نقطة البدء نحو التسطيح والانحدار والحق ان قوانين الغناء ليست رأياً شخصياً، انما هي نتاج عائلة كاملة من الاذهان على مستوى حقب التاريخ، ورثها جيل عن جيل سبقه من خلال امتزاج العلم الموسيقي بافكارنا الفطرية عن فن الغناء، الى جانب ذلك مايطرحه العصر من متغيرات تكون عوناً على ترسيخ اصولية الغناء لا ان تكون تمرداً عليها، ولنتأمل عزيز علي العصامي، الفنان المجتهد، المؤسس لفن المونولوج الانتقادي السياسي والاجتماعي ، ان مفاهيم هذا الفنان تكمن عميقاً في لون حنجرته الفحولية، الرجولية وطريقة اخراجه للكلمة الغنائية وعمق أحساسه باللحن الذي يؤديه ، وهو لحن يمكن أطلاق تسمية (الالقاء الملحن)، أو (التلاوة الملحنة)،عليه نجد انه لم يتأثر بأحد بل بقي مبتكراً لطريقته الالقائية التي تشد الاسماع ، لبلاغته الادائية وبراءة لسانه من عوج الكلمات وأمتلاكه ناصية الوضوح النبري، كل ذلك أهله لأن يحتل موقعاً من التاريخ ويقف على قمة من المواقع على اختلافها.

وعليه فأن المشابهة بين تلك المراحل من تطور الغناء العراقي ، يقوم على الالتزام باصولية الغناء، أما المشابهة السطحية ، تلك التي تجمع المراحل ، فهي مكيدة عظمى وقعت في شباكها جميع الاراء التي تحدثت عن فن الغناء العراقي، بأعتباره قيمة ليست قابلة للمس أو التغيير! بينما الحقيقة ان الاداء الذي يجب ان يحتل حيزاً من الاهتمام، هو الذي يحاول التنسيق بين هذه المراحل ونقدها ثم ترجمة مغزاها الروحي العميق الصلة باسماع الفئات الشعبية.

مغنون واغان

ولكي يكون حديثنا عن عزيز علي موثقاً بالوقائع التاريخية الدقيقة، لابد من معرفة ما يجري في عصره من الوان واتجاهات ومنابر. أنطلق الغناء العراقي بعد عصر (البستة) الفقيرة في مجال الخيال والبناء النغمي والتحليق الموسيقي الى آفاق اكثر تطوراً وقيمة وبناء في الاغنية العراقية ، عندما جاء الى اللجنة العراقية، الشقيقان (صالح الكويتي وداود الكويتي) حيث عملا على تشكيل فن الاغنية العراقية من خلال التعبير عن روح البيئة مستقطبة مقومات الصيغة اللحنية . السليمة . ولكي تستأثر بالمناخات الشرقية الزاخرة والمؤطرة بطابع الاصالة والتفرد متأثرة الى حد ما بأنجازات الاغنية العربية (المصرية) على وجه الخصوص (محمد عبد الوهاب ام كلثوم ، صالح عبد الحي، فتحية احمد، فريد الاطرش ، اسمهان ، عبد الغني السيد، ليلى مراد) من خلال الاسطوانات والافلام الغنائية، ويمكن القول ان الاغنية العراقية، كانت قبل الشقيقين صالح وداود شيئاً تعلق بنظام البستة الفقير، وصارت بعدهما ومن خلالهما شيئاً تعلق بنظام الاغنية المركبة نسبياً مثال (كلبك صخر جلمود، على شواطئ دجلة مر، هذا مو انصاف منك، تأذيني ، يالماشي الله وياك، مرابط وين رايح وين، منك يالاسمر كلبي تمرمر، كلبي خلص ، شكول على حظي، وكثير غيرها.

في العراق كان كبار المغنين ، كان هناك بعد مرحلة الفنان المتعدد المواهب (عثمان الموصلي) ، ومحمد القبانجي بوزنه المتميز الواضح، (حضيري ابو عزيز) بأنتشاره الجغرافي الواسع (ناظم الغزالي) بفرادته الادائية المستمدة من أصول التجويد العربي الاصيل، (سليمة مراد) بفطرتها القوية في التلقي الغنائي، (داخل حسن) بابتكاره التطريبي في فن الاداء، (حسن خيوكه) في انتظام حركته الغنائية، (يوسف عمر) في نهجه البغدادي في غناء المقام العراقي ، (زكية جورج) بنبراتها الشجية (صديقة الملاية) بوقع صوتها القوي المشوب بغلظته. في هذا الجو الغنائي اينعت ثمار عزيز علي صاحب الاصول البغدادية في الغناء والاداء والالقاء ، لكن نهضة عزيز علي كانت ذات مساس بالوطن والامة، لم يأخذه الحب الى أودية معبقة بأريج الزهور، ولم تأخذه العواطف الى ضفافها الأنيق الندي، ولم تسكن حنجرته اللواعج بل كان كل همه هو الجراح الذي يلف قلب الوطن، كان يحارب اللصوص والحرامية المرتزقة والاستعمار وقواه الشريرة ، وكان الى جانب ذلك يقود الاغنية الى العقلنة الاجتماعية، الى مواجهة المشكلات الطاحنة التي تواجه الناس في كل مكان مع الميل الى الغناء المقروء كشفاً عن معانٍ بلاغية لعالم يعيشه عزيز علي وهو عالم خاضع أو يجب ان يخضع للقوانين الاجتماعية المعهودة، وأوقف حنجرته بانشاء قوي بعيد عن النعومة، ومطعم بالانفعالات والاحساسات.. وغناهما متحداً بجمالات المدى الساطعة.

فن المونولوج

وهكذا قدر للفنان عزيز علي ان يدشن عصراً جديداً في الاغنية، فن المونولوج . وسط قوالب الغناء العراقي العسيرة ، المقام العراقي ، الاطوار الريفية ، الاغنية البدوية ، الاغنية الموصلية ، الاغنية البصراوية ، الاغنية البغدادية ، وعزيز علي ظل حتى رحيله بغدادياً في نزعته وميله وفي دمه، ولعل من المفيد ان الحديث عن اقتران اسم بغداد، مدينة الفطنة الانسانية، بأحد مونولوجات عزيز علي الشهيرة، وبالتالي فأن بغداد أمتلكت ملامح التشكل الحضاري لها، وعليه يمكن القول ان المدينة هي المصدر الذي يستقر فيها التكوين الحضاري وبغداد مدينة الصلابة والعصر الفكري والخلق الابداعي والروحي ، تدفعها الى التمدد والابهار ضرورة باطنة وتتفجر على غير انتظار منابع الحياة والنور في هذه المدينة الباسلة ، لذلك فكان جديراً لما لبغداد من صفات وتكوينات وتفريغ وحيوية تتجه في مجراها الى الباطن، لأنها مدينة المقومات ، فكان من حظ الاغنية لعزيز علي ان ترتبط باسم بغداد وتراثها الثر وكانت مونولوجات عزيز علي قد أخذت تقرع اجفان الزمن..وتستدر من مآقيه الدموع، وأخذت الاغنية عند عزيز علي تمر بمراحل بارزة من مراحل مسيرة الغناء العراقي المتقن فهي تتحسس طريقها الى افئدة الناس، لأنها تمس وجداناتهم في أعز مطالبهم ، وهي الحرية والخبز والكرامة.

الغروب

وككل شيء له قيمته ، كان لابد من غروب لهذا المونولوج المدوي في آفاق حياتنا العراقية وخريف لروحيتها المتماسكة نتيجة لضعف الروح المعنوية عند الفنان بعد ان قامت ثورة الرابع عشر من تموزك وقضت على الاحلاف والاقطاع والاستغلال والتبعية للاجنبي، ومع ان ما قدمه عزيز علي هو شاهد على الأصالة وتربع القمة في الاداء والتفنن في الالقاء ، فأن اعظم ما حققه عزيز علي في فن المونولوج هو الاتي:

اولاً. انه كرس ظاهرة المحافظة على لون التشكيل الحروفي للكلمة.

ثانياً. ان المونولوج لعزيز علي أدخل مفردات دقيقة لغوية بجانب اخرى، ظلت مهجورة عن روح التداول اليومي.

ثالثاً. أنها لم تهتم بالمعالجة المجازية للهزائم الذاتية ، أنما أهتمت بمعالجة الهزائم في البناء وخدمة الانسان.

رابعاً . ان المونولوج برزت فيه محاولة ملاحقة الصور الواقعية واستعمال الاشارات والغوص في عالم اليقظة الوطنية والقومية.

خامساً. تحول فن المونولوج من حرفة الى التعبير باللغة الانسانية المحمولة الى نمطها الاساسي بصدق وتفرد.

ان حياة عزيز علي هي سيرته كفنان، تاريخ موهبته التحويلية ، تلك التي لاتعدم في تأكيدها على ألهامات تفلت من المنطق حتى! لأن عزيز علي هكذا شاءت له الاقدار ان يكون صوته المغني الوحيد النبرة، المدروس الرصين، ولقد احتفظ فن المونولوج عنده بروح المغامرة، فهو بالمونولوج يحيا ويخترق ويركض ويبتهل ويجدف، ان يرى فيه تعبير نبوغه، فالمونولوج عنده هو ملجأ العظمة والصدق، الصور الورعة والتحديات وكان عزيز علي بعد ذلك هو الصورة الكبرى، تلك التي يستطيع الايمان فيه ان يقدم النصح للتمرد والصلابة ، ففنه هو قوة وابهام بل وسطوة في موسيقيته تلك التي تتمتع باعتبار كبير، وعبر عزيز علي صارت هذه الموسيقى في طريقها الى استعادة حقوقها المهملة، لاتعدم هذه المونولوجات اليقظة الذكية من وجود عاطفة بسيطة وهي عاطفة التئام المشاعر ووحدتها في الجموع البشرية ، تلك التي يعتريها الظلم كأحساس كوني، مع الظرافة مع القوة الراجعة الى الحدة، انها إلتزام سياسي، بمبدأ تقديس الوطن والامة، وتحت تأثير هذا الحب المتدفق في داخليته للوطن والامة ظل نسغ الابداع ينطلق هادراً ، عميقاً مغسولاً، فهذه المونولوجات هي وعاء لنشر المشاغل الحقوقية للناس وهمومهم التي تكبر وتدوي ، فهي مونولوجات تجازف في كل لحظة من ولادتها بصيغة جديدة.

واذا كان الرنين الذي اطلقه عزيز علي يتجلى بعيداً عن مذهب غنائي معمول به عن طريق الصدمات والأشراقات الساطعة، الا انه بالتأكيد يقترن اقتراناً خفياً بأسلوب صارم موزون.